عصره السياسي

امتدّت حياةُ ابن تيميّة في العصر المماليكي الأوّل، عصر المماليك البحرية، الذي ابتدأ بسيطرتهم على مصر سنة ٦٤٨هـ، ثمّ بلاد الشأم سنة ٦٥٨هـ، حتّى كانت نهايتهم في سنة ٧٨٤هـ ليبتدئ عهد المماليك البُرجية، وحتّى عام ٩٢٣هـ حيث نهاية دولتهم على أيدي العثمانيّين.

قام العصر المماليكي الأوّل على أنقاض الدولة الأيّوبيّة التي حكمت مصر والشأم منذ عام ٥٦٧هـ، حيث كانت نهاية العهد الفاطمي الذي امتدّ قرابة ثلاثة قرون (٢٩٦ ـ ٥٦٧هـ) حتّى أنهكتهُ الحروب المتوالية، فبعد السلاجقة الّذين بسطوا نفوذهم على بغداد سنة ٤٥١هـ، ثمّ اندفعوا نحو الشأم ينازعون الدولة الفاطمية على مدنه الكبرى، بعد ذلك كانت الحروب الصليبية التي ابتدأت في سنة ٤٨٨هـ بهاجمة الثُغور الشمالية في آسيا الوسطى، ثمّ انحدر الإفرنج الصليبيّون نحو الرُّها ليقيموا فيها أُولى ولاياتهم في أرض الإسلام سنة ٤٩١هـ، ثمّ أنطاكية التي أصبحت مركز ولايتهم الثاني، كلّ ذلك انتزعوه من السلاجقة، ثمّ انحدروا جنوباً فانتزعوا مدن الساحل ووادي نهر العاصي من الفاطميّين، وتوغّلوا نحو الجنوب قاصدين هدفهم، القُدس، حتّى اجتاحوها في شهر رجب من سنة ٤٩٢هـ بعد حصار دام نحو أربعين يوماً، فأشاعوا فيها الذبح الذريع دون تمييز في سنّ أو جنس، فكانت مذبحةً وصفها مصدرٌ لاتيني قائلاً: إنّ النظر كان يقع على أكوامٍ من الرؤوس والأيدي والأقدام في الطرق والساحات العامّة[1].

---

(١) فيليب حتّى ـ تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ـ ٢: ٢٢٩.

والظاهر أنّ تسمية الحروب الصليبيّة ليست تسميةً عربيةً، فالذي دوّنه مؤرّخو العرب هو اسم الإفرنج. وهؤلاء الإفرنج هم الّذين أطلقوا عليها اسم الحروب الصليبيّة، فاستساغه المتأخّرون لسببين:

الأول: أنّ تسمية الإفرنج تسمية قديمة رهينة عصرها.

والثاني، وهو الأهمّ: أنّ في هذه التسمية تعبير صادق عن هويّة تلك الحروب، التي انطلقت شرارتها الأُولى بدعوة البابا أُوربانوس الثاني في خطبته العنيفة التي ألقاها في جنوب فرنسا داعياً إلى الزحف نحو (كنيسة القيامة)، فهتف له الجمهور على الفور: هكذا يريد الله!

ولمّا كان الثأر الإسلامي من الصليبيّين قد ابتدأ على يد عماد الدين زنكي صاحب الموصل الذي هزمهم أوّل مرّة على أبواب حرّان، ثمّ اقتحم عليهم الرُّها منتزعاً أُولى ولاياتهم الكبرى في سنة ٥٣٩ هـ، ثمّ واصل قائده نور الدين محمود انتصاراته في سورية، في حين كانت الدولة الفاطمية في أضعف أدوارها وقد اقتحم عليهم الإفرنج الصليبيّون مدن مصر حتّى حصروا القاهرة، استنجد الخليفة الفاطمي العاضد بنور الدين محمود فأنجدهُ بجيش يقودُه شيركوه ويصحبه ابن أخيه صلاح الدين الأيّوبي، ليصبح شيركوه الشافعي وزيراً للعاضد الفاطمي الإسماعيلي، غير أنّه توفّي بعد شهرين فقط، ليقع اختيار العاضد على صلاح الدين فيتّخذه وزيراً وقائداً للجيوش على أنّه في الوقت ذاته كان نائباً لقائده نور الدين المستقرّ في دمشق. فكانت نهاية العهد الفاطمي على يد الوزير الجديد سنة ٥٦٧ هـ.

ومن الطريف أنّ صلاح الدين الذي خطّط مبكّراً لإنهاء الحكم الفاطمي تردّد كثيراً في قطع الخطبة الفاطمية، حتّى انبرى لها خطيب أعجميّ يدعى نجم

الدين الخبشاني[١]، فخطب للمُستضيء العبّاسي الذي لا يعدو كونه رمزاً مقيّداً في بغداد بعيداً عن كلّ ما يجري!

فانفرد صلاح الدين بملك مصر موجّهاً أنظاره نحو الشأم حتّى ضمّها إلى ملكه بموت نور الدين سنة ٥٦٩ هـ ليؤسّس الدولة الأيّوبيّة الفتيّة في مصر والشأم.

ثمّ توجّه لمطاردة الصليبيّين، فأفلح في طردهم من معظم المدن التي احتلّوها، فلم يبق في أيديهم من المدن الكبيرة سوى صور وطرابلس وأنطاكية. ولكن بعد مضيّ صلاح الدين ابتدأ النزاع بين بنيه وأخيه العادل وأبناء أخيه، واشتدّ النزاع بين خَلَفهم، وكلّما أحسّ أحدهم بالضعف استعان بالصليبيّين على أخيه أو ابن عمّه ومنحهم مالا يملكون من المدن، حتّى استعادوا أغلب ما انتزعه منهم صلاح الدين، وحتّى القُدس، تخلّى لهم عنها الملك الكامل ابن العادل على أن ينصروه على ألدّ خصومه، أخيه! صاحب دمشق.

فلمّا اشتدّ النزاع بين بني أيّوب عمد ملوكهم إلى شراء مماليك من الأتراك يقومون على حراستهم، واستكثر منهم الملك الصالح سنة ٦٣٧هـ وأقطعهم الأراضي ومنحهم جزيرة بحر النيل (روضة نهر النيل)، فمن أجل ذلك سُمّوا بالمماليك البحرية.

وازداد نفوذهم حتّى تمكّنوا بعد موت الملك الصالح في سنة ٦٤٧هـ بأشهُر فقط من قتل ابنه طوران شاه سنة ٦٤٨هـ ليؤول ملك الأيّوبيّين إلى الامرأة شجرة الدرّ زوجة الملك الصالح، فكانت آخر رموز الأيوبيين أوّل ملكة في تاريخ الإسلام!

ولأجل أن تحظى بتأييد الخليفة الرمز في بغداد اتّخذت عزّ الدين أيبك المملوكي وجهاً صورياً للحكم، ثمّ زوجاً، حتّى دسّت إليه مَن قتله في الحمّام، فهاج

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٤: ١٠٥، ابن الوردي ٢: ١١٤.

عليها المماليك فقتلوها ونصبوا سيف الدين قُطز المظفّر المملوكي، وخطبوا له بالسلطنة كأوّل سلطان فعليّ للمماليك في سنة ٦٥٧ هـ، بعد عام واحد على سقوط العاصمة العبّاسيّة بغداد بأيدي التتار المغول واجتياحهم مدن الشأم والإجهاز على بقايا الدولة الأيّوبيّة هناك.

وفي أقلّ من سنة مرّت على سلطنته استطاع قُطز أن يَهزِم التتار في معركة عين جالوت الشهيرة. ولم يمض على ملكه غير أحد عشر شهراً حتّى قتله الظاهر بيبرس ليجلس على كرسيّ السلطنة سنة ٦٥٨ هـ، وكان بيبرس أقوى سلاطين المماليك على الإطلاق وأحسنهم سيرةً، وقد حاول أن يعيد الرمز العبّاسي حين عثر على رجل جاء به بعض الأعراب فزعموا أنّه من أبناء البيت العبّاسي نجا بنفسه فارّاً من بغداد إثر الغزو التتري، فبايعه بالخلافة وأرسله على رأس جيش إلى بغداد ليجدّد عهد آبائه، غير أنّ التتار قتلوه غربي بغداد وأفنوا جُنده.

وواصل الظاهر بيبرس مطاردة التتار في بلاد الشأم، كما أفلح في دحر الصليبيّين واسترجاع معظم ما احتلّوه، حتّى استعاد منهم أنطاكية التي عجز عنها صلاح الدين، واجتاح قلاع الإسماعيليّة في سَلَميّة التي عجز عنها صلاح الدين أيضاً، وكادت تستوي له جميع بلاد الشأم، حتّى كانت وفاته سنة ٦٧٦ هـ؛ ليبتدئ بعده عهد جديد من الفِتن وتعدُّد الملوك وشيوع القتل بينهم، وكانوا على الترتيب:

السعيد بركة ابن الظاهر بيبرس: خلعه أُمراء العسكر سنة ٦٧٨ هـ.

سلامش بن بيبرس: كان عمره سبع سنين، وخُلع بعد أربعة أشهر فقط.

قلاوون المنصور: كان سلطاناً قويّاً انتظم في عهده أمر البلاد حتّى وفاته سنة ٦٨٩ هـ، وهو ثاني من مات على السلطنة بعد الظاهر بيبرس، في حين توزّع الآخرون بين مخلوع ومقتول.

الملك الأشرف ابن قلاوون: انتزع عكّا من الإفرنج واستعاد كامل البلاد الساحلية، وقُتل في سنة ٦٩٣هـ على أيدي مماليك أبيه.

بيدرا القاهر: ملك أقلّ من أُسبوعين فقتله مماليك أبيه.

الملك الناصر ابن المنصور قلاوون: وفي عهده هذا غزا التتارُ البلاد سنة ٦٩٩هـ واحتلّوا حلب وحماه ودمشق وغزّة والقدس والكرك وهزموا الملك الناصر إلى مصر، فأعاد عليهم الكرّة في العام التالي في جيش قاده سلّار وزميله بيبرس فهزموا التتار واستعادوا البلاد.

بيبرس: القائد، وزميله سلّار اتّفقا على خلع الناصر سنة ٧٠٨هـ واستقلّا في الحكم عاماً واحداً.

الملك الناصر: عاد إلى السلطنة سنة ٧٠٩هـ وأقصى بيبرس، وصَحِبَهُ سلّار من جديد، واستوت له البلاد، وعَدِمَ المنافسين، فكان آخر سلطان يعاصره ابن تيميّة.

وتعاقب على دمشق في هذه الفترة نحو خمسة عشر والياً، كان أوّلهم عَلَم الدين سنجر الحلبي (٦٥٨ ـ ٦٥٩هـ)، وآخرهم سيف الدين تنكز (٧١٢ ـ ٧٤٠هـ) وقد امتاز عهده بالاستقرار. وإلى جانب الوالي كان السلطان يعيّن (دواداراً)[1] وأُمراء عساكر يشاركون الوالي في الإدارة لضمان عدم تمرّده، وهذه المناصب كلّها حكر على المماليك الّذين دخلوا الإسلام بعد إقامتهم في مصر، وهناك أيضاً ابتدأوا يتعلّمون العربية.

تميّز هذا العهد بغَلَبَة السيف على الوراثة في الحكم، وتجسُّد التجزئة السياسية

---

(١) كلمة مخففة عن الأصل الفارسي (دواتْدار) وتقابل هنا: أمين السرّ.

بغياب الرمز العبّاسي إلى الأبد، تلك التجزئة التي كانت قد ابتدأت في الواقع قديماً منذ فقد البيت العبّاسي هيمنته، حيث كان أحمد الراضيّ ـ المتوفّى سنة ٣٢٩هـ ـ آخر خليفة عباسي ينفرد بتدبير الجيوش والأموال والسياسة، وآخر من خطب على المنبر يوم الجمعة من بني العبّاس.